البئر الأزرق

عاش في منطقة مصنعنا شاب يدعى إيليا ، وقد بقي يتيماً تماماً، فقد توفي جميع أقاربه. وقد ورث شيئاً من كل قريب من أقاربه.

فمن والده ورث يديه وكتفيه، ومن أمه أسنانها وأحاديثها، ومن جده إغنات ورث الآلات والماكينات، ومن جدته ورث إرثاً خاصاً سيدور الحديث عنه أولاً.

فقد كانت هذه الجدة ماكرة وكانت تجمع الريش في الشوارع، وتصنع وسادة لحفيدها، ولكنها لم تستطع إكمال الوسادة. وعندما شعرت بدنو اجلها، نادت حفيدها وقالت: انظر يا حفيدي إيليا ، كم جمعت جدتك من الريش. إنه يكفي لملء غربال. وانظر إلى الريشات كم هي صغيرة وناعمة، فخذها ذكرى عني، لأنك ستحتاجها.

وعندما تتزوج ستجلب زوجتك وسادة، وأنت لن يكون لديك ما يخجلك، فليس جديداً عليك أن تنام على وسادة فجدتك صنعت لك واحدة.

ولكن لا تسعَ وراء هذا الأمر، فإن جلبت لك وسادة كان حسناً، وإن لم تجلب لا تحزن. بل ابق فرحاً سعيداً، واعمل جيداً ويمكنك أن تنام على القش، فترى حلماً جميلاً. وعندما تطرد الأفكار السيئة من رأسك كل أمورك ستسير على ما يرام. وسيفرحك ضوء النهار وتهدهدك عتمة الليل وتدفئك الشمس الحمراء. أما إذا

obeikandl.com

أدخلت الأفكار السيئة إلى رأسك فكل شيء يفقد رونقه ولا تعود ترى شيئاً جيداً في هذا العالم.

عن أي أفكار سيئة تتحدثين يا جدتي؟... سأل إيليا.

إن الأفكار السيئة التي أتحدث عنها هي أفكار حول المال والغنى، فلا أفكار أسوأ منها. فلا يجني الإنسان من تفكير كهذا إلا الانزعاج والبلبلة الفارغة فبالصدق والضمير يصعب على الإنسان أن يجمع ريشاً ليصنع وسادة، فما بالك إذا أردت تجميع الثروات.

فكيف إذاً... سأل إيليا – نفهم ثروات الأرض؟ فالغنى موجود...

نعم إنه موجود ولكنه ليس مضموناً: فهو يأتي كومة ويذهب غباراً ويسبب للإنسان الحزن والكآبة. فلا تفكر به ولا تقلق نفسك.ويقولون هناك نوع واحد من الغنى القادم من الأرض وهو نقي ومضمون، وهو عندما تتحول العجوز الزرقاء إلى صبية جميلة وتقدم الثروة بيديها للإنسان. وتعطي العجوز الزرقاء الثروة للشخص الذكي والماهر وصاحب النفس النقية. ولا أحد غيره. فتذكر يا ولدي إيليا نصيحتي الأخيرة لك.

فانحنى إيليا للجدة وقال: شكراً لك يا جدتي لوكيريا، لأنك جمعت لي الريش وقدمت لي نصيحتك، ولن أنساها ما حييت.

وبعد فترة توفيت الجدة العجوز وبقي إيليا وحيداً، هو كبير البيت وصغيره. وطبعاً حضرت العجائز المسؤولة عن مراسم الدفن وغسلوا العجوز وألبسوها ودفنوها. وكانت هذه العجائز تعملن في هذه المهنة لأن حياتهم ليست ميسورة، فيأخذن من أغراض البيت ويطلبون ما يعجبهن، فأخذت العجائز كل ما أعجبهن، وعندما عاد إيليا من مراسم الدفن وجد كوخه فارغاً. ولم يبقَ فيه سوى الثياب التي خلعها إيليا وعلقها فور وصوله. كما أنهن أخذن الريش الذي جمعته الجدة، ولم يبق في الغربال سوى ثلاث ريشات. ريشة بيضاء وأخرى سوداء وثالثة شقراء.

انزعج إيليا لأنه لم يحافظ على الريشات التي تركتها له جدته ذكرى عنها، فقال لنفسه:"علي أن أحافظ على هذه الريشات الثلاث، فقد بذلك جدتي جهداً في جمعها وأنا تصرفت وكأن الأمر لا يعنيني".

فالتقط خيطا أزرق كان مرمياً على الأرض وربط الريشات الثلاث وثبتها في قبعته. وقال:"هنا المكان المناسب لها، فكلما ارتديت قبعتي أو نزعتها رأيت الريشات وتذكرت جدتي ونصيحتها، فهي نصيحة ستفيدني في حياتي. وعلي أن أبقيها في ذاكرتي دائماً".

ثم ارتدى معطفه وقبعته وذهب إلى المنجم. ولم يقفل كوخه، لأنه لم يبق فيه شيء. فليس فيه سوى الغربال الفارغ القديم، الذي لن يأخذه أحد حتى لو رآه على الطريق.

وكان إيليا في سن الزواج، وكانوا يعتبرونه من العرسان في المنطقة، وقد عمل في المناجم سبع سنوات، ففي تلك الفترة التي كان فيها الإقطاع سائداً كانوا يجبرون الناس على العمل منذ نعومة أظافرهم. فكان واحدهم قد عمل لحساب الإقطاعي عشر سنوات قبل أن يتزوج. ويمكننا أن نقول أن إيليا أيضاً كبر وهو يعمل في المناجم.

وكان يعرف هذه المناطق بطولها وعرضها، وكان الطريق إلى المناجم طويلاً، فخطر على بال إيليا خاطر فقال لنفسه: "دعني أذهب عبر مستنقع زوزيل، فالحر شديد، ولا شك أن المستنقع قد جف وسيسهل علي عبوره".

قال ذلك وتوجه في طريق المستنقع عبر الغابة، وكان يمشي بنشاط في البداية ولكنه تعب أخيراً وأضاع الطريق. فقد كانت الطريق مخفية والأجزاء الظاهرة من أرض المستنقع كانت تقوده في اتجاه آخر.

وأخيراً خرج إلى مرج صغير تنمو عليه الأعشاب وكان في وسطه مكان منخفض، وجوانبه أكثر ارتفاعاً وبجانبه شجرة حور عالية. فعرف إيليا أنه مكان جاف تماماً. وكان الأمر الوحيد السيئ أن إيليا لم يكن يعرف إلى أين يتجه. فكم

مرة كان في هذه المناطق ولكنه لم ير سابقاً مرجاً كهذا.

وهكذا سار إيليا في منتصف الطريق بين نتوءات الأرض. وبقي يسير حتى رأى وسط المرج بئراً مستديراً وفيها ماء نقي ولكن لا ترى للماء قاعاً. وكان يبدو أن الماء نقي ولكنه مغطى بشبكة عنكبوت زرقاء اللون وفي وسطها عنكبوت أزرق.

ففرح إيليا لرؤية الماء فأزال شبكة العنكبوت وأراد أن يشرب، وفجأة وما إن قرب وجهه من الماء حتى شعر بدوار ورغبة شديدة في النوم. فقال لنفسه:"إن السير في المستنقع أتعبني كثيراً، وعلي أن أنام ساعة". وأراد أن ينهض عن الأرض ولكنه لم يستطع فزحف باتجاه قبعته ووضعها تحت رأسه واستلقى لينام. ورأى أنه خرجت من ذلك البئر عجوزقصيرة القامة، ثوبها أزرق ومنديل رأسها أزرق وهي كلها زرقاء اللون، ونحيفة الجسم، لدرجة يبدو لك أن نسمة الريح يمكن أن تحركها. ولكن عينيها كانتا شابتين وزرقاوين وكبيرتين، وكأنما لا يكفيهما المكان.

نظرت العجوز إلى الشاب ومدت إليه يديها وبدا أن يديها تمتد وتطول، حتى وصلتا إلى رأسه، وكانت يداها رقيقتين كالذباب الأزرق، وليس فيهما قوة ولا مخالب، ولكن إيليا شعر بالخوف. وأراد إيليا أن يزحف بعيداً عنها ولكن قوته لم تكفه. ففكر في نفسه: "دعني أبعد عنها نظري لعلي لا أخاف". فأبعد وجهه عنها ولمس أنفه الريشات الثلاث على قبعته. فشعر برغبة شديدة في العطاس، وأخذ يعطس ويعطس وشعر بتحسن كبير في حاله.فالتقط إيليا قبعته ونهض على قدميه. ورأى أن العجوز في نفس المكان ترجف من الغيظ، فقد وصلت يداها إلى قدمي إيليا ولكنها لا تستطيع رفعهما أكثر. فعرف إيليا أن العجوز قد ارتكبت خطأً، فلم تعد قوتها تصل إليه، فعطس عدة مرات أخرى وقال بسخرية: ماذا لم تقوي علي أليس كذلك؟

فبصق على الأرض وذهب. وحكت العجوز بصوت رنان وشاب: انتظر ولا تفرح كثيراً، فإذا أتيت مرة ثانية لن تغادر المكان حياً.

ولكنني لا أنوي أن آتي مرة ثانية... أجاب إيليا.

لا شك أنك خفت... فرحت العجوز.

obeikandl.com

فانزعج إيليا لهذا الكلام، فتوقف وقال: طالما أنك قلت ذلك فسآتي قصداً لأغرف ماءً من بئرك.

فضحكت العجوز وأخذت تسخر من الشاب وتقول: أنت تباهى بنفسك، ولكن عليك أن تقول شكراً لجدتك لوكوريا، فريشاتها أنقذت حياتك، ولذلك لا تتباهى بنفسك. فلم يولد إنسان بعد يستطيع غرف الماء من بئري.

حسناً سنرى إن ولد أو لم يولد... رد إيليا.

ولكن العجوز بقيت تصر على رأيها وتقول: إنك ثرثار ليس أكثر، فكيف ستحصل على الماء إن كنت خائفاً من الاقتراب مني. أن كلامك فارغ. إلا إذا جلبت معك أشخاصاً أكثر شجاعة منك.

لا... صاح إيليا – هذا ما لن تحصلي عليه مني، كي أجلب لك أشخاصاً آخرين. فقد سمعت كم أنت مزعجة وكيف تخدعين الناس.

فظلت العجوز تكرر نفس الكلام: لن تأتي.. لن تأتي. فأنى لك أن تتجرأ على ذلك.

وعندها قال إيليا: حسناً عندما تكون الريح قوية في يوم العطلة انتظريني فسآتي لزيارتك.

ولماذا تحتاج إلى الريح؟

سترين يومها... رد إيليا- أنت فقط انتظريني .. لا تنسي.

سوف أسحبك بيد واحدة إلى بئري وستكون ملكاً لي، ولن تساعدك الريح ولا ريشات جدتك.

وبعد هذه المشادة الكلامية، تابع إيليا طريقه، وأخذ يحفظ الطريق ويقول لنفسه: "هذه هي إذاً العجوز الزرقاء. تبدو وكأنها على حافة قبرها، ولكن عينيها عينا فتاة شابة تصرعان الفرسان بجمالهما، وصوتها كصوت صبية شابة، يرن رنيناً عجيباً، يا ليتني أرى كيف تتحول إلى فتاة شابة".

obeikandl.com

كان إيليا قد سمع الكثير حول العجوز الزرقاء، فقد تحدثوا عنها كثيراً في المناجم. أن الناس كانوا يصادفونها في مناطق المستنقعان البعيدة وأعماق المناجم. فحيث تجلس العجوز الزرقاء تتوضع الثروات الأرضية.فإن استطعت طرد العجوز الزرقاء من مكانها ينفتح لك بئر مليء من الذهب والأحجار الكريمة. فاغرف عندها كل ما استطاعت يدك أخذه. وكثيرون ذهبوا للبحث عن الثروة ولكنهم عادوا بلا شيء، وبعضهم لم يرجع أصلاً.

ومع حلول المساء وصل إيليا إلى المنجم.فسأله المشرف غاضباً: لماذا تأخرت؟

فشرح له إيليا أنه كان مشغولاً بدفن جدته لوكوريا. فشعر المشرف بالخجل ولكنه رغم ذلك وجد لنفسه شيئاً يعترض عليه فقال: ما هذه الريشات التي تضعها على قبعتك؟ وما هي مناسبة وضعها؟

إنها... أجاب إيليا – إرث جدتي. ووضعته هنا للذكرى.

فأخذ المشرف وكل من كان حولهما يضحكون من إرث كهذا، لكن إيليا قال لهم: حسناً، فأنا لن أبدل هذه الريشات بهذا المنجم بكامله. لأنها ليست ريشات عادية بل ريشات تحمل الدعاء، فالريشة البيضاء تجعل يومي سعيداً، والسوداء تجعل ليلي هادئاً، والشقراء تجعل أيامي مشمسة.

وكان يمزح طبعاً. ولكن أحد الشبان الذي كان حاضراً ويدعى كيريل، وكان من عمر إيليا وقد ولدا في نفس الشهر، ولكنه لم يكن يشبه إيليا في شيء. وكان يحب الثروة كثيراً وصار له فترة يفكر في طريقة لإيجاد الذهب أو سرقته وكان يفكر في نفسه:"إن وجدت ذهباً أخذته لنفسي". وكان يحب أن يأخذ مال غيره لنفسه ويسرق كل ما وضع بغير حرص من صاحبه. وقد سببت له عادته هذه علامة على جسمه، فقد ضربه أحدهم بالمجرفة وسبب له ندبة على وجهه عندما كان يحاول السرقة.

وكان كيريل هذا يحسد إيليا كثيراً، فإيليا كان شاباً قوياً وعظيم البنية ومرحاً وماهراً، وكانت أعماله تسير بيسر. فكان عندما ينهي عمله يجلس ليأكل

obeikandl.com

ويغني أو يرقص. ولم يكن لدى كيريل أي شيء لينافس به إيليا فلا قوة ولا حيوية ولا جمال.

وكان عند كيريل رأيه الخاص في هذه المسألة فقال: "لا شك أن إيليا يعرف كلمة ما تجلب له الحظ والنجاح في العمل". وما إن سمع بريشات إيليا حتى قال في نفسه:"هذا هو إذاً مصدر الحظ عند إيليا".

ومن الطبيعي أنه سرق الريشات في نفس الليلة. وفي اليوم التالي انتبه إيليا لغياب الريشات وظن أنه أسقطها. فذهب يبحث عنها في المنجم. وصار العمال يسخرون منه ويقولون: هل أنت في كامل وعيك أيها الشاب، فكم قدم داست في هذا المكان طوال اليوم، وأنت تبحث عن ريشات صغيرة؟ لا شك أنها أصبحت غباراً. ثم ما فائدة تلك الريشات؟

كيف؟... سأل إيليا – إن هذه الريشات هي ذكرى من جدتي.

فقالوا له: الذكرى تحفظ في مكان أمين أو في الذاكرة وليس فوق القبعة.

ورأى إيليا أنهم يقولون الحق وتوقف عن البحث عن تلك الريشات. ولم يخطر بباله أبداً أن الريشات سُرِقَت.

وصار الهم الجديد عند كيريل أن يراقب إيليا وكيف ستسير أموره الآن، بعد أن فقد ريشات جدته. فرأى كيريل أن إيليا أخذ دلواً واتجه نحو الغابة. فذهب كيريل خلفه وهو يفكر:"لا شك أنه وجد ذهباً في مكان ما". ولكنه لم ير أي ذهب، بل رأى أن إيليا ثبت الدلو على عود من الخشب، ثم ثبت تحته ثلاثة أعواد خشبية أخرى. فزاد فضول كيريل وتساءل لِمَ كل هذا.

وكان الخريف على الأبواب وبدأت الريح تشتد. وفي يوم السبت عندما كانوا يصرفون العمال باكراً إلى منازلهم، طلب إيليا الإذن بالذهاب إلى المنزل أيضاً. فاعترض المشرف في البداية وقال له: لقد ذهبت منذ فترة قريبة إلى المنزل، ثم لماذا تذهب فليس لديك أسرة، وقد أضعت ريشاتك وهي كل ما لديك في المنجم.

ولكنه سمح له بالذهاب رغم ذلك. وكيريل لم يفوت فرصة كهذه فذهب منذ الصباح الباكر إلى المكان حيث كان الدلو مخبأً واختبأ ينتظر مجيء إيليا، واضطر أن ينتظر طويلاً، ولكن عادات السارقين معروفة، فقد قيل إن السارق أكثر صبراً من الكلب فما بالك أن تقارنه بغيره من الناس. وعند الصباح جاء إيليا وأخرج الدلو وقال: آه لا يوجد ولا ريشة واحدة، رغم أن الريح قوية وستنشط عند منتصف النهار أكثر.

وبالفعل فقد اشتدت الريح لدرجة أن صفيرها انتشر في أرجاء الغابة. فسار إيليا في الطريق الذي ترك فيه علاماته، وسار كيريل خفية وراءه وهو يفكر سعيداً.

"لا شك أن هذه الريشات هي التي تدله على طريق الثروة".

واحتاج إيليا لوقت طويل ليتتبع الآثار، وكانت الريح تخفت تدريجياً. وما إن خرج إلى المرج حتى هدأت الريح تماماً، ولم يتحرك غصن واحد. نظر إيليا ورأى العجوز الزرقاء تقف عند البئر، تنتظره وتصيح بصوت رنان: جاء المقاتل وقد أضاع ريشات جدته وليس لديه ريح هنا. فماذا يفعل الآن؟ اركض إلى بيتك وانتظر الريح. ربما يسعفك الانتظار.

وكانت العجوز تقف جانباً عند البئر ولا تمد يديها باتجاه إيليا، ويحوم فوق البئر ضباب أزرق كالقبعة. فانطلق إيليا بأقصى سرعته باتجاه البئر وأدخل الدلو في الضباب الأزرق وصاح: ابتعدي أيتها العجوز الخبيثة كي لا أصدمك صدفة، فغرف من البئر وشعر بثقل وزن الدلو، وأخرجه بصعوبة. أما العجوز فأخذت تضحك ساخرة مظهرة أسناناً شابة بيضاء ناصعة. وقالت: سوف أرى كيف ستخرج الدلو من البئر. وهل ستشرب الكثير من ماء بئري.

ورأى إيليا أن الدلو ثقيل فعلاً فغضب بشدة وصاح للعجوز: اشربي بنفسك... فشد عزيمته ورفع الدلو قليلاً وأراد أن يقلبه على العجوز، ولكنها ابتعدت سريعاً، فانطلق وراءها، فانكسر مقبض الدلو وانسكب الماء. فضحكت العجوز ثانية وقالت: أنى لك أن تنجح في ذلك؟

انتظري أيتها العجوز الشمطاء سوف أسكب عليك ماء بئرك كوني أكيدة.

فقالت له العجوز: حسناً.. مزحنا ويكفي، أرى أنك شاب قوي وشجاع. تعال في ليلة البدر عندما تشاء، وسأريك مختلف الكنوز وخذ قدر ما تشاء. فإذا لم أكن موجودة قل:"جئت بلا دلو" فتحصل على كل ما تريد.

إنني أريد أن أراك تتحولين إلى فتاة شابة... قال إيليا.

سنرى حسب عملك... ردت العجوز وابتسمت فظهرت أسنانها الناصعة.

وكان كيريل قد سمع كل ذلك ورأى كل ما حدث. ففكر في نفسه: "علي أن أعود سريعاً إلى المناجم وأحضر حقائب كبيرة. كي لا يسبقني إيليا".

وهرب كيريل بينما سار إيليا ببطء إلى منزله، فقطع المستنقع وعاد إلى بيته، واكتشف اختفاء غربال جدته. فاستغرب إيليا ، فمن الذي يحتاج لغربال عتيق كهذا؟ فذهب إلى أصدقائه في المصنع وسألهم وعاد إلى المنجم، ولكنه لم يمشِ بطريق المستنقع بل بالطريق التي يسير فيها الجميع.

ومر على تلك الحادثة خمسة أيام ولم تخرج الحادثة من رأسه، فقد صار يفكر فيها خلال العمل، كما صارت تزعج نومه. وكان يرى عيني العجوز الزرقاوين ويسمع صوتها الرنان وهي تقول:"تعال في ليلة البدر متى شئت".

وهكذا قرر إيليا: "سأذهب لأرى الكنوز كيف تكون. وربما تظهر لي العجوز صبية شابة".

وفي تلك الأثناء بدأ هلال جديد يضيء السماء وصارت الليالي أكثر نوراً. وفجأة انتشرت أحاديث في المنجم أن كيريل ضاع. فذهبوا إلى المصنع وبحثوا عنه فلم يجدوه. وأمر المشرف أن يبحثوا في الغابة فلم يجدوه أيضاً. وكان كل واحد يفكر في نفسه:"لن نخسر شيئاً من اختفاء سارق". وعند هذا الحد انتهى الأمر.

وعندما صار القمر بدراً ذهب إيليا إلى مكان البئر. فنظر ولم يجد أحداً. فلم يغادر إيليا وقال بهدوء: جئت بلا دلو.

وما إن قال ذلك حتى ظهرت العجوز وقالت بلطف: أهلاً وسهلاً بك يا ضيفنا العزيز. إنني أنتظرك منذ زمن. اقترب وخذ كل ما تستطيع أخذه.

فرفعت غطاء البئر بيديها وكشف البئر عن كنوز لا نهاية لها، فشعر إيليا بالفضول لرؤية الكنوز، ولكنه لم يقترب. فصارت العجوز تعجل عليه قائلة: ما لك تقف هناك، أقول لك اقترب وخذ ما تستطيع.

فرد إيليا: ليس لدي حقيبة وقد سمعت من جدتي لوكيريا كلاماً آخر. أن الثروة التي تعطيها للإنسان بيديك هي فقط الثروة النقية والأكيدة.

يا لك من متطلب، فأنت تريد أن أقدم لك الكنز أيضاً. حسناً فليكن كما تريد.

وما إن قالت العجوز ذلك حتى ظهر عمود من الدخان الأزرق من أعماق البئر وخرجت من البئر فتاة جميلة ترتدي ثياباً وزينة كالملكات، وطولها كنصف طول شجرة الحور. وتحمل في يديها طبقاً مليئاً بالكنوز، من رمل ذهبي وأحجار كريمة. اقتربت هذه الفتاة من إيليا وقدمت له الطبق بانحناء وقالت: تفضل أيها الشجاع.

وكان إيليا قد كبر في المناجم وزار مناطق استخراج الذهب ويعرف كيف يزنون الذهب. فنظر إلى الطبق وقال للعجوز: إنك تفعلين ذلك لتسخري مني. فليس بمقدور أي رجل أن يحمل طبقاً كهذا.

ألن تأخذه؟... سألت العجوز.

لا ولن أفكر بذلك حتى... أجاب إيليا.

حسناً فليكن كما تريد. سأقدم لك هدية أخرى... قالت العجوز.

فاختفت تلك الفتاة التي تحمل الطبق مباشرة. وخرج عمود من الدخان الأزرق من البئر، وخرجت فتاة أخرى أقصر طولاً من سابقتها، وهي جميلة أيضاً وترتدي ثياب ابنة التجار. وتحمل في يديها طبقاً فضياً وعليه كومة من الكنوز. فرفض إيليا أخذ هذا الطبق أيضاً وقال للعجوز: ليس بمقدور الإنسان أن يرفع طبقاً كهذا وليس بيديك تقدمينه.

فضحكت العجوز ضحكة فتاة وقالت: حسناً فليكن كما تريد، سأسلي كلينا ولكن شريطة ألا تندم بعد ذلك.

قالت ذلك واختفت فوراً الفتاة التي تحمل الطبق والعجوز الزرقاء. فبقي إيليا واقفاً وحيداً. فمل من الانتظار، وفجأة سمع حفيف العشب بجانبه، فالتفت إيليا إلى جهة الصوت، ورأى فتاة بسيطة فقيرة تقترب منه وطولها كما طول الإنسان العادي، وعمرها يقترب من الثماني عشرة سنة، وثوبها أزرق ومنديل رأسها أزرق وحذاؤها أزرق. وكانت الفتاة جميلة جداً ولطيفة، فعيناها كالنجمتين وحاجباها كالقوسين وشفتاها كحبة فراولة وجديلتها طويلة وشقراء موضوعة فوق كتفها وفيها شريطة زرقاء.

فاقتربت الفتاة من إيليا وقالت: تقبل يا صديقي العزيز إيليا هديتي أقدمها لك من كل قلبي.

وقدمت له بيديها البيضاوين غربال الجدة لوكيريا وكان مليئاً بأصناف الثمار والفاكهة، وفوقها ريشات الجدة الثلاث، ريشة بيضاء وأخرى سوداء وثالثة شقراء، مربوطة فيما بينها بخيط أزرق.

تقبل إيليا الغربال وبقي واقفاً كالأحمق لا يدري من أين جلبت هذه الفتاة غربالاً مليئاً بالثمار الصيفية والربيعية في فصل الخريف. فسألها: من أي عائلة أنت أيتها الفتاة الحسناء؟ وقولي ما اسمك؟

فضحكت الفتاة وقالت: يسميني الناس بالعجوز الزرقاء، أما الإنسان الماهر والشجاع ونقي النفس يراني كما تراني أنت الآن، ولكن هذا يحدث نادراً.

وعندها أدرك إيليا مع من يتحدث، فسألها: ومن أين لك هذه الريشات الثلاث؟

فأجابته: إن كيريل السارق جاء يبحث عن الكنوز. فسقط في البئر وأسقط حقائبه معه، فطافت ريشاتك الثلاث. يبدو أنك شاب بسيط.

ولم يدر إيليا ما يقول، ووقفت الفتاة صامتة وهي تلعب بشريط جديلتها. ثم

قالت: حسناً يا صديقي إيليا، فأنا العجوز الزرقاء. دائماً عجوز ودائماً شابة. ومربوطة بالكنوز المحلية إلى الأبد.

ثم صمتت قليلاً وسألت: حسناً يكفيك نظراً إلي، وإلا فسوف تراني في منامك.

ثم تنهدت وشعر الشاب وكأن تنهيدتها جرحت قلبه كالسكين. وكان مستعداً لتقديم أي شيء حتى تصبح فتاة حقيقية، ولكنها اختفت.

وبقي إيليا يقف في مكانه فترة طويلة بعد. وانتشر الضباب الأزرق على كامل المرج، وعندها فقط توجه إيليا عائداً إلى بيته. ومع حلول الضوء وصل كوخه، وشعر أن الغربال زاد ثقلاً وتمزق قاعه وتساقطت على الأرض الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة.

فدفع إيليا للإقطاعي مالاً مقابل حريته، وأقام لنفسه بيتاً كبيراً ومتيناً، واشترى حصاناً. ولكنه لم يستطع الزواج.فلم تكن تلك الفتاة تبرح تفكيره. وهرب النوم من عينيه. ولم تساعده ريشات الجدة لوكيريا. وصار يقول: آه يا جدتي لوكيريا قد علمتني كيف أحصل على ثروة العجوز الزرقاء، ولم تعلميني كيف أطرد عن نفسي الحزن والكآبة، يبدو أنك أيضاً لم تكوني تعرفين ذلك.

فبقي يتعذب فترة ثم قرر أخيراً: "الأفضل أن أغطس في ذلك البئر، من أن أتحمل عذاباً كهذا".

فذهب إلى مستنقع زوزيل، وأخذ معه ريشات الجدة. وكانت فترة نضوج الثمار قد جاءت. وصار الناس يذهبون لقطف الفراولة.

وما إن اقترب إيليا من الغابة، حتى صادف مجموعة من الفتيات حوالي العشرة تحملن سلالاً مليئة بالفراولة. وإحدى الفتيات كانت تسير في المقدمة وعمرها يقارب الثماني عشرة عاماً وترتدي ثوباً أزرقاً ومنديلاً رأس أزرق، وكانت لطيفة وجميلة جداً. فحاجباها كالقوسين وعيناها كالنجمتين وشفتاها كحبة الفراولة ، وجديلتها الشقراء الطويلة تتدلى من فوق كتفها. وتشبه تماماً التي رآها عند

البئر. والاختلاف الوحيد بينهما هو أن تلك كانت ترتدي حذاءً أزرق اللون، أما هذه فتسير حافية القدمين.

فوقف إيليا مبهوراً ينظر إلى الفتاة، بينما هي نظرت إليه بعينيها الزرقاوين وابتسمت عارضة أسنانها البيضاء. فقال إيليا: كيف حدث أني لم أرك سابقاً.

فقالت له: حسناً انظر قليلاً. فأنا بسيطة في هذا الشأن ولن أعترض.

أين تعيشين؟... سأل إيليا.

اذهب في طريق مستقيم ثم سر نحو اليمين. فترى هناك جذع شجرة مقطوعة. فاركض بأقصى سرعتك واضرب الجذع برأسك. فما إن يتطاير الشرار من عينيك حتى تراني.

وكانت تسخر منه طبعاً، كما هي عادة الفتيات. ثم عرفته على نفسها وأخبرته في أي شارع تعيش وما هو اسمها. وكانت عيناها تشدانه إليها. فوجد إيليا نصيبه مع هذه الفتاة. ولكن لم يعيشا فترة طويلة. فقد كانت من سكان مناطق استخراج المرمر، ولهذا لم يرها إيليا سابقاً. وكانت فتيات تلك المنطقة أجمل الفتيات، ولكن الذي يتزوج من إحداهن يترمل سريعاً، فقد تربوا بجانب الحجر منذ نعومة أظافرهم، وينتشر بينهم مرض السل الرئوي.

كما أن إيليا لم يعش نفسه فترة طويلة، فلا شك أنه التقط العدوى. أما في منطقة مستنقع زوزيل فقد اكتشفوا منجماً كبيراً. فلم يخفِ إيليا سراً أين حصل على الكنز. فصار الناس ينقبون في تلك المناطق، فاكتشفوا في مستنقع زوزيل منجم ذهب.

وأذكر أنه في أيامي كان الذهب ما يزال يستخرج من هذه المناطق. أما البئر فلم يجده أحد، بينما الضباب الأزرق ما زال منتشراً فوق المستنقع يعد الناس بالثروة.

فنحن لم نحفر إلا عند السطح بينما يقولون أن بئر العجوز الزرقاء عميق، وينتظر من يعثر عليه.